خواجات اسكندرية

الطبعة الأولى – عن النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

Elnokhbapublish.com

1441 هـ – 2020 م

رقم الإيداع: 8693 / 2020

الترقيم الدولي: 9 – 494 – 838 – 977 – 978

الكتاب: خواجات اسكندرية

المؤلف: أميمة منصور

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

6 شارع رجاء عبدالرسول، المتفرع من شارع وادى النيل

أمام سور نادى الزمالك– الجيزة – مصر – 01288688875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

طبع في مصر

خواجات اسكندرية

مجموعة قصصية

أميمة منصور

النخبة
للنشر والطباعة والتوزيع
2020

إهداء

إلى ابني وابنتي.

إلى روحي وراحتي... إلى حبي ومودتي.

إلى صديقي وصديقتي... إلى سِرّي وسريرتي.

إلى قلبي ومهجتي... إلى سروري وبهجتي.

إلى ابني محمود، الذي منَّ الله عليه بالكرم والجود.

إلى ابنتي ياسمين، التي منَّ عليها ربي بالجمال والحنان والحنين.

إلى مَن غمراني حبًا وحنانًا، فشهدت فيهما قول ربنا (وبالوالدين إحسانًا).

إلى مَن أدركا قول حبيبنا «الجنَّة تحت أقدام الأمهات»، فسارعا بنيل الرضا من رب البريات.

إلى مَن عَلِما أن رضاء الله من رضاء الوالدين، فنالا معًا رضوان ربِّ العالمين.

إلى ابني وابنتي، من أحسنا صحبتي، فكانا في فؤادي ومهجتي.

إلى ابني وابنتي الذين أدركا أن النظر إلى وجه الأم بحنان يعدل حِجة مبرورة، فصارت حياتهما سعيدة مسرورة.

إلى ابني وابنتي الذين جعلهما الله لي قرة عين، فأحببتهما حتى وقعت العين على العين.

فطوبا لهما، وأمدَّ الله في عمرهما، وبارك في أبنائهما، ومنَّ عليهما بحبه وخصهما بقربه.

إلى محمود وياسمين، أهدي هذا الكتاب.

ماما... أميمة

الخواجة يانني

في أواخر الخمسينات من القرن الماضي، وفي مدينة الإسكندرية التي بناها الإسكندر الأكبر بأثارها العتيقة، قلعة قايتباي، وتمثال الجندي المجهول، والفنار، ولسان السلسلة.

أما عن شواطئها الساحرة فحدث ولا حرج، فقد كانت تمتلئ بأجمل الجميلات، وحين تكون قريبًا من بحرها وتسمع صوت أمواجها كأنها الألحان تكاد أن تسمع صوت الست أم كلثوم وهي تشدو:

الموجة بتجري ورا الموجة

عايزة تطولها

تضمها وتشتكي حالها

من بعد ما طال السفر...

إسكندرية يا وجه العالم الفيروزي بشوارعك النظيفة المضيئة ورائحة بحرك التي تملأ الصدور.

وكنا آنذاك نعيش بأحد الأحياء الراقية «ستانلي»... شارعنا من أجمل الشوارع التي رأتها عيناي، فالأشجار مزروعة على الجانبين،

والبيوت مطلة على البحر من عدة جوانب، واللون الأزرق يغطي مساحات كبيرة منها.

كانت غالبية السكان من اليونانيين، أي «الإجريج»، كما كانوا يسمونهم آنذاك.

خليط من المصريين والإيطاليين كلهم سواسية، مساكنهم متشابهة، عاداتهم وتقاليدهم متشابهة، كلهم أصدقاء بل أحباب.

فالأمهات يتزاورن، والجدات يتقابلن عند الغروب يتريضن ويتمشين على الكورنيش، أما الفتيات الجميلات فيجتمعن أسبوعيًا في بيت من البيوت يقمن حفلات سَمَر، يرقصن ويتغنين بأغاني: حليم، وديمس روسوس، وأونريكو ماسياس صاحب الأغنية الشهيرة آنذاك: «J'ai quitté mon pays»، والتي ذاع صيتها في ذلك الوقت.

أما الشباب فكانوا يملؤون الشوارع وكأنهم عسكر يحرسوننا ويلبون طلبات من يقصدونهم، ثم يجتمعون في مقهى الحي (شانت كلير)، يلعبون البلياردو والطاولة وغيرها من الألعاب...

وكان يعيش معنا في الشارع شاب أبيض اللون ذو عينين زرقاوتين ممتلئ القامة، إنه الخواجة «ياني»، كان جميلًا قلبًا وقالبًا.

كان الخواجة ياني صديق لكل الجيران، يعمل في فرقة موسيقية ويعزف علي آلة «الباتري»، ويجيد العزف عليها ويغني بصوته الجميل العذب.

عاش ياني مع أمه، فأبوه رحل عن دنيانا وهو صغير فلا يكاد يتذكره، وكانت أمه «طنط ماريا»، غاية في الأدب والرقة، وكان يهتم بها جدًا، ولكن أغلب اهتمامه كان لأحبابه وجيرانه يودهم في كل المناسبات، يغني لهم ويسمعهم أجمل الألحان.

كان ياني يهتم اهتمامًا كبيرًا بنظافة الشارع وزرع الورود وسقي الأشجار، ولم يكن يكتفي بذلك بل كان يشجع بقية الشباب، حتي بات شارعنا من أجمل الشوارع وكانوا يطلقون عليه شارع الحب.

وتزوج أغلب الشباب وكانت جارتنا «مريتسا» تحب ياني وتتمني أن تتزوجه، لكنه رفض أن يرتبط بأحد، كان كل همه العناية بأمه المريضة والاهتمام بها، فهي تستحق منه كل التضحيات. أما ماريا فلم تكن تدخر وسعًا في السهر عليه وإرضائه.

كنا إذا أصبحنا تلاقينا في ود وحب لا فرق بيننا مسلمين ومسيحيين، حتي جارنا اليهودي جاك، لا أحد يتعالي على الآخر فكلنا نعبد رب واحد.

وكنا إذا جلسنا في خلوة لا نذكر سوى أمالنا وأمانينا في المستقبل القريب.

وكان الحاج محمد هو أعز صديق للخواجة ياني، لا فرق بينهما نفس الشهامة والرجولة، لا جنس آخر ولا دين آخر، وإذا أذن المؤذن بصوته الجميل: الله أكبر الله أكبر صمت الجميع، وإذا دقت أجراس الكنيسة تسمع هذا الدعاء الجميل: فليتقدس أسمك ولتكن مشيئتك خبزنا كفافنا أعطنا اليوم.

وظل ياني علي عاداته الجميلة وظللنا نحن علي العهد حتى تدخلت السياسة فمزقت وحدتنا وهاجر كثير منهم، وكم بكينا وكم تقطعت أنياط قلوبنا لماذا ترحلون يالا قسوة الفراق!

وفي كل مرة يهاجر فيها أحد الأحباب كنا نغني معًا والدموع تسبقنا:

تركت بلدي تركت بحري تركت بيتي.

- سألت ياني متي ستهاجر؟

- فابتسم قائلًا: لا يا حبيبتي لن أترككم لن أترك بلدي التي ولدت فيها وسأدفن فيها فتراب أجدادي جزء من هذه الأرض لا لا أنا باقي بقاء الإسكندرية.

وكنت قد سافرت مع زوجي إلى بلد عربي يعمل بها، وحين عدت في أجازته السنوية ذهبت ذات يوم كي أتناول الغداء مع صديقاتي في النادي اليوناني الذي يطل مباشرة علي البحر، ورأيته هناك...

نعم نعم هذا هو ياني بلحمه ودمه، إنه أخي وجاري وصديقي، وتذكرت الشارع الجميل شارع الحب، تذكرت البنات الجميلات، تذكرت أمي وأبي وقد رحلوا عن دنيانا، ثم دار هذا الحوار بيننا وكنت أتكلم اليونانية:

- تي كانس ياني أي كيف حالك؟
- كالا.. الحمد لله .. ماشي الحال.
- كيف هي طنط ماريا؟

تحجرت الدموع في عينيه: ماتت ماريا أمه وأخته وسنده وطنه سماءه وأرضه ماذا أقول أريد ان أحتضنه وأبكي معه..أنها الحياة!

وأردت أن أغير الحديث الحزين:

- ماذا تعمل الان؟

- أعمل هنا مدير النادي اليوناني... قالها ياني وهو ساهم الطرف.

- عندك ولاد يا ماجي؟
- نعم أحمد وتمارا.
- ضروري أشوفهم.
- طبعا مانت خالهم.
- نسيت أسألك عن أخبار الشارع؟

- أخبار متسرش مهما بذلت فيه من جهد وتعبت في تنظيفه لا أحد يعتني به.. أما الجيران أصبحوا لا يتكلمون مع بعض إلا حين يتشاجرون، لا تذهبي ستندمين على ما كان، لقد تغير كل شئ كل شئ.

واتفقنا مع الأصدقاء أن نذهب لزيارة ياني ومعنا الهدايا والحلوى. وفي يوم عيده التففنا حوله وقلت للأصدقاء: لن أترك الخواجة ياني فريسة للوحدة والأحزان. سأزوره في بيته في النادي في أي مكان هو فيه، سنعيد أمسياتنا وأيامنا الحلوة سنحاول ان نرد الجميل.

- نعم الجميل يا ياني فكم أسعدتنا!

***

مادلين

كانت مادلين ونيللي زميلتين في مدرسة الراهبات بالإسكندرية.. كانت نيللي فتاة جميلة ويغلب عليها الطابع الشرقي.

وكانت مادلين ذات جمال أخاذ، فقد كانت شقراء ذات بشرة وردية، أما عيناها فحدث ولا حرج، فهما أجمل عينين رأيتهما في حياتي، فلونهما يميل إلى اللون البنفسجي، وكان شعرها ينساب في رقة حول وجهها الجميل.

كانت حين تمشي تتزاحم حولها النظرات..

يا ألله ما هذا الجمال؟!

كانت أرمنية لكنها كانت مصرية، ولدت وعاشت في الإسكندرية، كانت رقيقة خجولة محترمة الحب يحبها، بل يتنافس على صداقتها، لكنها لم تصادق إلا نيللي.

أما الآخرون فكانوا بالنسبة لها مجرد معارف.

كانت نيللي ومادو كما كانت تناديها، تذهبان سويًا إلى مدرستهما، وعمرهما لم يتجاوز الخامسة عشرة.

وكانت الإسكندرية ممتلئة بالأجانب من جميع الجنسيات،... يونانيون وإيطاليون وأرمن، وكان لها صديق في نفس عمرها إيطالي الجنسية، ولد أيضًا في الإسكندرية، وكان يدعى كلاديو.

وقع الفتى في غرام مادو، وبادلته نفس الشعور بل أقوى، وكانا يتنزهان معًا وبصحبتهما نيللي، وكان يرسل لها خطابات غرامية وهي سعيدة بحبه سعادة كبيرة.

وفي يوم لم تشرق فيه الشمس رآها أبوها وكلاديو يمسك بيديها وهما يتنزهان...

وكانت مصيبة، فالأرمن يشبهون الصعايدة كثيرًا، ويتمسكون بالعادات والتقاليد.

أخذها أبوها إلى البيت، وعنفها وهددها بأنها إذا استمرت في هذا الحب لن تذهب إلى مدرستها بل ستجلس مع أمها في البيت.

وبكت مادو، ولكن كلاديو كان يرسل لها من الحين للحين بدواء، وهي الرسائل التي تقربهما رغم البعد.

وظن كلاديو أنه يستطيع زيارة أبيها كي يشرح له الموضوع، ولكن الأب تهكم:

- ماذا يريد؟.. إنهما صغار على هذه الأشياء.

ورفض رفضًا باتًا التحدث معه، وظلت نيللي ومادو صديقتين عزيزتين، تكبران معًا، بل توزعان حزنهما وفرحتهما بينهما بالتساوي.

وجاءت هوجة الهجرة، وفكر الكثير من الأجانب في ترك الإسكندرية، وهي مسقط رأسهم وحبهم الكبير.

وجرت مادو نحو صديقتها والدموع في عينيها:

- سأهاجر إلى كندا مع عائلتي، ولن أراكي بعد اليوم يا حبيبتي.

- كيف هذا؟.. لا مستحيل أن أعيش بدونك. متى سترحلون؟

- الشهر القادم.

- بهذه السرعة... هذا ظلم، ظلم. وكلاديو ماذا سيفعل؟

- سيهاجر هو أيضًا إلى وطنه إيطاليا ليلتحق بكلية الهندسة... لا أمل في اللقاء، لقد انتهت قصتنا.

ذهبت نيللي إلى بيتها وهي لا تكف عن البكاء، ورآها والدها الحنون وأخذها في حضنه.

- لا تبكي يا حبيبتي، سوف تتعرفين على أصدقاء جدد. وسوف تكتب لك، إن المحبة ستبقى رغم البعاد.

واستسلمت نيللي للواقع المرير، وجاء يوم السفر، كان يومًا ثقيلًا، بكاء وعويل وأحضان في المطار.

وجاءت أول رسالة من الصديقة المخلصة بروح عينيها البنفسجيتين الجميلتين. ووصفت مادو كيف تعيش غربة لا توصف.

ومرت الأيام والشهور والسنين، وكتبت مادو لحبيبتها التي لا تنساها: «لقد تزوجت من صيدلي اسمه استانلي، هذه صورة المنزل، انظري، هذا هو المطبخ باللون الأحمر».

- الحمد لله يا مادو، إنني سعيدة الآن!. أنا تزوجت وأنجبت ولدين اثنين.

وفي يوم جميل من أيام صفو الزمان، جاءت مادو إلى الإسكندرية مسقط رأسها، مات الأهل، أما هي فكانت حزينة، فقد طلقت من زوجها ولم ترزق بأولاد، ولكنها كانت تعمل وتعمل حتى لا تشعر بالوحدة.

وبكت الصديقتان معًا، فراق الأهل وموت الأحباب. وحاولت نيللي أن تخرج مادو من هذا الجو، فذهبا إلى الأماكن التي كانا يحبانها، وجاء وقت الرحيل وتمنت نيلي لمادو كل السعادة...

- لا تحزني يا حبيبتي، إن الله على كل شيء قدير، إنه قادر قدير مقتدر، سيغير حياتك ويرسل لك من تحبينه وتثقي به.

وسافرت مادو وظلت تراسلها عبر الفيس بوك، وكتبت مادو إلى نيللي:

- نيللي حبيبتي، هل تذكرين كلاديو؟
- نعم، نعم، طبعًا أذكره.
- تصوري، لقد وجدته عن طريق الفيس بوك.
- يا إلهي، كيف حدث ذلك؟
- إنه القدر، ألم تقولي لي: إن الله على كل شيء قدير؟.. لقد دعاني لزيارة إيطاليا، وقد وافقت، آه كم أشتاق إليه، إنه مطلق مثلي وليس لديه أولاد، تصوري!.. يا لمفارقات القدر.

– مادو... عندما تعودين اكتبي لي كل شيء عن هذه الزيارة، إنني جد سعيدة من أجلك، أيعقل هذا؟..

إنها المعجزات.

من قال إن زمن المعجزات انتهى؟..

إنك موجود يا ربي في كل زمان وفي كل مكان.

ستطيب القلوب التي طالما باتت جريحة.

وبعد أيام كتبت مادو إلى رفيقة الصبا:

– أخيرًا التقينا، يا له من لقاء رائع، سأعود إلى كندا كي أحزم حقائبي وأعود إليه.

إنه حبيبي الذي لم أحب سواه، سنتزوج، نعم سنتزوج، إنه مشغول بالفيزا كي أسافر إليه.

شكرًا حبيبتي نيللي،

أه نسيت أن أقول لكِ إنه يرسل لك أجمل تحية.

***

فلورا فوستاس

ولدت فلورا من أبوين يونانيين في الإسكندرية عام ١٩٣٥م، ولا زالت حية ترزق تعيش أيضًا بالإسكندرية مع بناتها وحفيداتها...

تربت في المدرسة اليونانية التي كانت مشهورة لكل أبناء الجالية.. وبعد تخرجها التحقت بالمدرسة الإنجليزية ثم أتجهت للعمل ففتح لها والدها محل أزياء نسائية، وكان يتردد عليها صفوة المجتمع، الذين كان يطلق عليهم «كريمة المجتمع» في ذاك الوقت..

كانت جميلة الوجه ذات عينين واسعتين وبشرة مخملية وقوام ممشوق ولها ضحكة رنانة، كانت أجمل ما يثير الانتباه حولها.

ظل الحال هكذا كل من يرغب في شراء أحدث خطوط الموضة يتجه نحو «بتينا» وهو اسم المحل حيث تجلس فلورا وتقدم قمة الأناقة لزبائنها وأحدث الموديلات الفرنسية، وكانت بنات الذوات يتوددن إليها:

- فلورا، أريد أحدث موديلات شانيل عندي حفلة كبيرة ولا تنسي حبيبتي أريد برفان شانيل.

- فلورا، ابنتي ستتزوج الشهر القادم، أريد ثوب زفاف فرنسي سأكون في منتهي السعادة لو كان ماركة إيف سان لوران مقاس ١٢ ، لا يهمك السعر.

- حاضر حبيبتي قريبا انشاء الله.

وهكذا كان متجرها يعج بأرقي السيدات وأجملهن، وأحبت فلورا هذا العمل وتفانت فيه، لقد اصبح كل شئ جميلا في عينيها، ولكن دوام الحال من المحال.

لقد قامت الثورة رجاء، وحكم عبد الناصر وأصبحت الاشتراكية هي السائدة، وتغيرت الوجوه وتغير البشر، واختفت النساء الجميلات الأنيقات وحل محلهن نساء وبنات لا يفقهن شيئًا في الذوق وفي الموضة وغيرها.

ولم تستطيع فلورا التعامل معهن، فأخذت تفكر ماذا تفعل؟ أتمتنع عن العمل وتغلق متجرها؟

لا لن يكون ذلك... فكرت كثيرا وإذا بها تغير النشاط من «بتينا للاناقة» إلى «بتينا للأطفال»، وتخصصت في أزياء الطفولة وذاع صيتها.

وبين ليلة وضحاها قرر أبوها الخواجة فوستاس أن يعود إلي اليونان ومعه فلورا وأمها وتركوا أختها «إلسي» مع زوجها، وكتبت «إلسي» إلي والدها:

- أرجو أن ترسل لي أختي حتي تساعدني، فقد أوشكت أن أضع طفلي الأول. أرجو أن تسرع يا أبي.

وبالفعل سافرت فلورا إلى أختها، وكان لزوجها صديق ذو طلعة باسمة، كان يملك مصنعا للتريكو يسميه «تريكوكات»، وكان يسكن في نفس العمارة التي كانت أختها وزوجها يسكناها.

وبدأ سِحر الحب يسحر فلورا، أما حبيبها سليمان فقد هام بها عشقًا وغراما، وتزوجا وأنجبت فتاتين مثل القمر في ليلة تمامه.

اشتري لهم سليمان فيلا رائعة في منطقة العجمي تبعد كيلومترات عن الإسكندرية، واختار هذه المنطقة بجانب مصنعه الكبير .

عاشا سنوات عمرهما لا يعرفان سوى الحب والحفلات الجميلة البريئة، وتزوجت البنات وجاءوا بالأحفاد، ومرض سليمان ثم انتقل لرب كريم، وظلت فلورا على العهد لا تقسم إلا بحياته ولا تتحدث إلا عن زكرياته، وقد بلغت من العمر ٨٥ عامًا وهي تنعم بالحنان في أحضان بناتها، تتنفس هواء الإسكندرية التي ولدت بها ولا تزال تتنفس هوائها...

***

قصة ماري

جاءت ماري مع والدها ديمتري من قبرص إلى الإسكندرية، حيث كانت الإسكندرية منارة يأتون إليها من كل البلاد ليتبادلوا التجارة فيما بينهم... وكانت وقتئذ من أغنى بلدان العالم تحتفي بزائريها وتبذل لهم كل نفيس... وكم من الأسر أتوا إليها، من اليونان ومن إيطاليا ومن قبرص ليقيموا فيها حتى ظنوا أنها بلدهم الحقيقية.

وكبرت الأجيال، جيل بعد جيل يقطنون في أحلى الأماكن... منهم من اشتغل في قطع الآثار الصغيرة، والمشغولات الذهبية والفضية كهدايا خان الخليلي.

ومنهم من فتح المطاعم وقدم المأكولات والكباب اليوناني المشوي على أسياخ خشبية... ومنهم من قدم أصناف المكرونات والبيتزا الإيطالي، فأحب الإسكندرانية هذه الأصناف من الطعام وتهافتوا عليها... وأخذ هؤلاء الأجانب ينفتحون أكثر وأكثر على أصحاب البلد... يبنون أرقى الفيلات، والأغنياء منهم يركبون أفخم السيارات، كل يعيش حسب مستواه وحسب دخله.

ناهيك عن الصداقات التي كانت تربط بين الخواجات وبين أهل البلد... أنظر كيف أحب المصري جاره اليوناني والإيطالي،

كانوا جيرانًا بمعنى الكلمة، يحبون بعضهم بعضًا، ويتبادلون التهاني والحلوى في الأعياد ويخرجون معًا للنزهة، وإذا مرض أحدهم عادوه بكل حب ووفاء، حاملين معهم ألذ الأطعمة والحلوى، لا شيء يكدر صفوهم.

- كالميرا عايده

- صباحك قشطه مارينا.

- اليوم ستأتي ماري لزيارتنا، جاءت هي والخواجة ديمتري والدها يبدأوا مشروعهم الجديد، وسوف يسهرون عندنا. تعالي يا زينب اسهري معنا لو استطعتي.

- خلاص إن شاء الله.

جاءت ماري الفتاة الجميلة ذات الوجه الصبوح والشفاه والشفاه القرمزية والعينين الساحرتين بلون العسل المصفى، وجلست مع ماريتا يتبادلون أطراف الحديث ويتسامرون.

- متى تبدأ العمل؟.. أريد أن أعرفك بتاجر في نفس مجالكم سيساعدك كثيرًا.

- متى نستطيع أن نقابله ماريتا؟

- كما تشاءين.

- ما اسمه.

- خميس.

- هاميس.

والتقت ماري ووالدها بخميس شاب في الثلاثين، متزوج وله ثلاثة أولاد، أسمراني اللون بشوش ضاحك السن.

وجلس خميس معهم واتفقوا على كل شيء في العمل وتوطدت العلاقة بينهم، وأصبح خميس مستشار ديمتري أبو ماري... وكانت ماري تخرج معه لشراء أدوات العمل، وأعجب بها وأعجبت به لكنه على غير دينها ومتزوج وهي عذراء لم يلمسها رجل من قبل.

وجاءت إليّ فنحن أصدقاء منذ زمن وحكت لي عن هاميس كما كانت تنطقها... وحكت لي عن حبها له.

- إنني أحبه ولا أستطيع الابتعاد عنه... إنه لا يبارح خيالي، عندما يكون بجانبي أشعر أنني أسعد إنسانة في الوجود.

- وهل سيوافق مسيو ديمتري؟

- لست أدري... لم أفاتحه بعد، ولكني مصرة... نعم سأتزوجه مهما كانت العراقيل.

أما هو فكان غارقًا في بحر هذه الشقراء الجميلة... إنه على خلاف مع زوجته فهو لا يحبها، ولم يحبها في يوم من الأيام.

وذهب خميس إلى الخواجة ديميتري ليطلب منه ماري، وهو يدعو الله أن يوافق عليه. وتشجع خميس وقال له:

- أريد أن أتزوج ابنتك، سأضعها في عيني.
- لا... لن أوافق، لن يحدث هذا.

وبكل عجرفة رفض المليونير ديمتري خميس ... وذهب خميس يائسًا بائسًا إلى بيته والدموع في عينيه... لقد كانت ماري كل أمله في الحياة.

قال الأب في خشونة لم تعهدها ماري من قبل:

- تعالي... أرأيتي ماذا جرى اليوم؟
- وماذا جرى يا أبي؟
- مصيبة كبرى. خميس يريد أن يتزوج منك.

وتشجعت وردت في برود:

- أنا الأخرى أريد الزواج منه... إنني أحبه ولا أريد الزواج من غيره.
- لقد جننتي... هذا لن يكون أبدًا.
- بل سيكون يا أبي، إنني لم أحب قبله، ولن أحب أحد بعده.
- سأحرمك من الميراث ولن أجعلك فردًا من العائلة... سوف تعيشين غريبة وتموتين غريبة.

وبكت ماري كما لم تبكِ من قبل.

وفي الصباح اتصلت بحبيبها... ولم يصدق نفسه فهو لم ينم منذ أمس.

- حبيبتي ماذا جرى... أين أنتِ؟

- أنا هنا يا حبيبي انتظرك في محطة الرمل.

- حالًا، دقائق معدودة وأكون بجانبك، لن أتزوجك إلا بعد أن يتم طلاقي... لن أجعل معكِ شريكًا... لقد اتفقت معها... غدًا سننتهي من هذه القصة إن شاء الله.

ولكنها طلبت منه أن تعلن إسلامها قبل الزواج، وبالفعل أشهرت إسلامها وذهبت لأداء العمرة، وحين عادت قابلها خميس بالأحضان وتزوجها، وأقام لها عرسًا كبيرًا كي يفرح قلبها ويعوضها عن أهلها الذين حرمت منهم.

وعاشت معه سعيدة كل السعادة، وهو كان يعبدها ويفتخر بها أمام الجميع... وكانت السعادة ترفرف عليهما... وقد رزقا بمحمود ثم بثلاثة بنات كن له قرة عين وأصبح الحبيب العاشق الأب الحنون والزوج المسؤول. وأصبح خميس من أثرياء القوم بعد زواجه من ماري.

- إنتي يا وش السعد تعالي جنبي، آه كم أحبك... من أين أرسلك الله لي... لا بد أنه سبحانه أتى بك من الجنة... نعم إنني أعيش في الجنة بجانبك يا أميرتي.

ضحكت من كل قلبها وقبلته، وسألته بكل براءة:

- ألا زال حبي متوهجًا في قلبك؟

- نعم يا حبيبتي، إنه كذلك بل وأكثر.

- دمت لي يا حبيبي ودام حبك... أريد أن أغمرك بحناني كما غمرتني بعطفك وحنانك.

- هاميس... كيف حال أولادك من زوجتك الأولى؟.. ألا ترعاهما كما ترعى أولادنا.. إنني أريد أن أراهم، إنني أحبهم فهم قطعة منك... أريد عنوان بيتك القديم، لا بد أن أزورهم.

- ولكني أخاف عليك يا حبيبتي... إن زوجتي الأولى ليست مضمونة، فربما أزعجتكِ.

- لا تخف عليا يا حبيبي، سأتعامل معها بالحسنى.

وذهبت ماري وطرقت الباب وهي تتوخى الحذر، وفتحت لها الباب وأدخلتها، وأخذت ماري الأولاد في حضنها وهي تبكي من شدة الفرح.

ثم جلست مع ماجدة يتجاذبان أطراف الحديث، واعتذرت ماجدة لميري عما بدر منها في حقها... حيث سبق لها أن أعلنت الحرب عليها، وتقبلت ماري اعتذارها بصدر رحب.

عادت إلى منزلها حزينة. فقد لمست الفرق الكبير بين البيتين، وعقدت العزم على ألا تترك زوجها بدون أن تنصحه، فهي تخاف عليه من عقاب الله.

- هاميس... لازم ترجع زوجتك الأولى حتى ترث معي. أنا لا أطيق أن أظلمها، ليس من أجلها ولكن من أجل أولادنا.

- أنا لا أتعجب من موقفك، فقد عودتيني على كرم أخلاقك، ولكن لي شرط واحد ألا يكون بينها وبيني إلا الورق من أجل الميراث، ولن أبيت عندها ليلة واحدة.

- موافقة... طلباتك أوامر.

واستطاعت ماري أن تلم الشمل... واستراح ضميرها.

وأحب خميس أن يرد لها الجميل فذهب إلى والدها... فرقّ قلبه وكان قد افتقدها كثيرًا، فقد كانت ابنته المقربة.

وأقام خميس عزومة كبيرة لكل أهلها، وأصبحوا بين ليلة وضحاها من أقرب المقربين لـ ديمتري.

***

هانيا

كانت هانيا وحيدة أبويها في العشرينات من عمرها، تخرجت من كلية الألسن وتخصصت في اللغة الألمانية وأصبحت تجيدها مع الفرنسية والإنجليزية.

التحقت بإحدى الوظائف المرموقة، وبرغم الوظائف والغنى، ظلّ أبوها الدكتور يوسف يحلم باليوم الذي يراها وهي تزف إلى الزوج الذي يتمنى أن يصون ابنته التي علمتها أمها مدام كاترين فنون الطبخ والحلوى.

فقد كانت كاترين مضرب الأمثال في النظام والترتيب، كل شيء في بيتها يضوي كأنه الماس، وورثتها هانيا في كل شيء فأصبحت الأم وابنتها نموذجًا يحتذى به.

وجاء شاب في الثلاثينات من الصعيد يعمل «محاسب» في أحد البنوك وتقدم لخطبتها، وفرح الأب أيما فرح وتحدد الزواج، وأهدى الدكتور يوسف ابنته وزوجها الكثير مما يملك.

كان وجدي زوج هاديا شيابًا حلو الصورة، لكنه ظهر بعد ذلك على حقيقته أناني متسلط، وكان سليط اللسان لا يترك مناسبة إلا

وينتقدها، لا شيء يعجبه، وأصبحت الفتاة المسكينة تخشاه وتعمل له ألف حساب فيزيد من تعنته.

ورزقا باثنين من الأولاد كانا قرة عين لجدهما وجدتهما، وبدأ وجدي يتدخل فيما لا يعنيه.

- لماذا أمك ترتدي هذه الملابس.

- أرجوكِ يا مامي لا تلبسي هذه الملابس عندما تأتين لزيارتنا.

- ماذا تقولين يا ابنتي؟.. هل أنا صغيرة حتى توجهينني؟

- آسفة يا مامي لم أقصد مضايقتك، ولكن ماذا أفعل لوجدي؟.. إنه لا يكل ولا يمل من كلماته الجارحة ومن تدخلاته في شؤوننا. اعذريني يا أمي، أنا أنام واستيقظ كل يوم على هذا النكد.

- لن أزورك بعد اليوم... أنا موجودة في بيتي، عندما تشتاقين إلي تعالي وأحضري الأطفال، لا تحرميني من رؤية أحفادي.

ودخلت كاترين شقتها الأنيقة والدموع تملأ عينيها، وأمسكت التليفون وجاء صوتها المرتعش عبر الأثير.

- رجاء... أين أنت حبيبتي؟

- موجودة... ماذا جرى، أتبكين يا حبيبتي؟

- لا لا... نفس القصة، إنه وجدي لا يضيع وقته إلا في النكد على ابنتي.

- هوني على نفسك. كل شيء يمر وينتهي.

قلت لها ذلك وقلبي يتألم، فقد رأيته عدة مرات ولم استرح له، فهو فظ غليظ القلب.

وسرحت في الماضي حين كانت هانيا طفلة يانعة تتمتع بوجه كالقمر، بيضاء اللون ينسدل على جبينها شعر حريري أحمر اللون، نحيفة متوسطة الطول... كم كانت جميلة ساحرة رقيقة الصوت تتمتع بأدب جم.

يا خسارة... لماذا وقعت في هذا الرجل، إنه القدر. ولكنه ورغم كل شيء كانت تحبه فهو زوجها وأبو أولادها.

نعم أحبته وتغاضت عن أخطائه، بل وأخلصت له من كل قلبها.

وهرع إليها في يوم من الأيام...

- هانيا... ما رأيك في الهجرة إلى أمريكا؟

- هجرة؟.. أي هجرة هذه التي تتحدث عنها، مؤكد أنك تمزح معي.

- لا لا... أنا جاد جدًا، ولم أكن يومًا جاد كاليوم. لقد مللت هذا البلد. منذ متى وأنا أقف محلك سر لا أحصل على أي ترقية ، مع أن كل الزملاء أخذوا نصيبهم من العلاوات والترقيات.

- وهل وجدت سبيلًا لهذه الهجرة؟

- نعم. كل شيء مجهز وسوف نرحل بعد شهرين.

وبكت هانيا... كيف ستترك أباها وأمها وحيدين، فليس لهما أحد غيرها.

وجاءت وهي تبكي...

- طنط رجاء، ماذا أفعل؟ إنني حائرة، يريد وجدي أن يأخذني إلى أمريكيا، و و...

وأخيرًا سافرا إلى أمريكا واشتروا فيلا أنيقة.

وبعد مرور عام جاءت كاترين والدكتور يوسف لزيارة ابنتهما، ومرض الأب ولم يمهله القدر كي يدفن في مصر مسقط رأسه فدفن في أمريكا، وبقيت الأم تسافر وتعود حتى تأخذ الجنسية الأمريكية.

كبر الأولاد والتحقوا بالجامعات، وأراد وجدي أن يعمل مشروعًا بعد أن ورثت زوجته وحماته، ووافقوا، فلقد ترك لهم الأب الكثير.

وبالفعل أقام المشروع الذي كان يحلم به، وبقي على غرابة طبعه وعلى عنفه مع هانيا المسكينة، وكانت الأم حين ترى غرابة أطواره تدخل حجرتها ولا تظهر إلا بعد أن يخرج من البيت.

واستيقظت كاترين على صوت أشياء تتكسر وصراخ وجرت إلى المطبخ وهي في حالة يرثى لها، وكانت المفاجأة رأت هانيا واقعة

على الأرض وبجانبها فنجان القهوة الذي رماه في وجهها ولكنه وقع على الأرض.

كان يريد أن يلقي بفنجان القهوة في وجهها، وقد كانت تلك الحادثة هي القشة التي قسمت ظهر البعير، وأصرت هانيا على الانفصال وهو يرفض، ولكنها اشتكته في المحكمة الخاصة بقضايا الزواج والطلاق، وتم بالفعل الانفصال.

وكانت لها جارة طيبة القلب اسمها «هالة»، متزوجة من طبيب غاية في حسن الخلق، ووقفوا بجانبها، وعينت هانيا في البنك الأمريكي، وظلت تكافح وتكافح كي تكمل تعليم الأولاد. أما هو فقد ادعى الفقرة وأنه خسر تجارته ورفض دفع حتى مال حماته...

وفوضت هانيا أمرها إلى الله، وعرض عليها الكثيرون الزواج لكنها رفضتهم جميعًا... ورجعت هانيا وأمها إلى مصر مسقط رأسيهما.

وفرحت فرحة لا توصف حين اتصلوا بي وأخبروني بموعد وصولهم.

- وحشتوني يا أعز الأحباب.
- جئت لأراكِ رجاء.
- شكرًا حبيبتي كاترين.

ثم أمضيا شهرًا في إجازة طويلة تمتعوا خلالها بالأحباب، وعادا لأمريكا، ودارت عجلة الأيام وبدأت هانيا في استعادة توازنها.

والتقت به في الكنيسة التي كان يتردد عليها، فهو من رجال الأعمال الذين يهتمون بالفقراء والأيتام، ويجلس مع رجال الدين ليعطيهم ما يطلبون.

رآها هناك وكانت ليلة عيد الكريسماس، وهنأها بحلول عيد الميلاد الجديد، وجلسا معًا يتبادلان أطراف الحديث.

وكان حديثه ممتعًا للغاية، فهو بسيط ومرح ومتفائل مثلها، وسألته في براءة:

- هل لديك أولاد؟

- أنا لم أتزوج إلى الآن... لم أجد من تملأ حياتي وتعوضني عن أمي التي افتقدتها.

- كم عمرك؟...

يا الله إنه أصغر مني ليس بكثير... لا يهم، ربما نكون أصدقاء في يوم ما.

وخرجا الاثنين من الكنيسة ودعاها للعشاء... آه كم كانت سعيدة؟.. ربما يعوضه الله عما تحملته من هذا الزوج.

وتوطدت علاقتهما وأحبته حبًا ملأ عليه حياته بعد أن كانت خاوية على عروشها، وظلّا معًا سنة كاملة يتكلمان في كل شيء إلا

الزواج، ولكنها لم تتعجل الأمور، فهي تثق به وبحبه، وأحست أنها بحاجة لجارتها الحبيبة.

- هاي رجاء... كيف حالك حبيبتي؟

- هاي حبيبتي وحشتيني، مامي عاملة إيه والأولاد؟

- كلنا كويسين، بس كنت عايزاكي تفكريني بالحلم اللي حلمتيه ليا. أنا وجيمس.

- هههههه إنتي لسه فاكره؟

- بجد مش بهزر.

- شفت يا ستي ما معناه إن جيمس بيطلبك للجواز، وفعلا اتجوزتوا وفرح كبير، وأنا كنت في الفرح، إنتي عارفه يا هانيا أحلامي كلها بتتحقق.

- طبعًا عارفه يا حبيبتي، عشان كده بقولك لو حصل ها تبقي أول المعازيم.

ومرّت الأيام، وطلبها جميس للزواج، وأقام لها عرسًا رائعًا، وحضرت الفرح كما وعدتها، وكم كانت سعادتي، إنه عوض الله الذي لا يعادله عوض.

***

صوفيه هانم

نشأت فاتن وترعرعت في أسرة كريمة، فالأب كان طبيبًا والكل يحبه ويحترمه، وتعلمت فاتن في مدارس أجنبية وكانت تتقن اللغتين الفرنسية والإنجليزية، وكانت متفوقة في دراستها ودائمًا من الأوائل، فكانت مضرب الأمثال في التفوق والأخلاق الكريمة.

ورغم الغنى وكثرة المال لم تتكبر يومًا على من هم دونها، بل على العكس كانت تعطف عليهم وتعطيهم من مالها الخاص. فصارت محبوبة الفقراء.

وتزوجت وأنجبت ثلاثة أطفال كانوا قرة عين لها، وكان لها عم يزورها بين الحين والآخر، وكانت تحبه بل تعشقه، فهي كانت تحب أهلها حبًا كبيرًا.

وكان عمها يعمل بوزارة التربية والتعليم، وكان ضليعًا في اللغة العربية، جاء إليها وكله شوق:

- حبيبتي... إزيك وحشتيني.

- إنت إللي واحشني يا عمو،أرجوك ابقى معي ولو لأيام قليلة، ولا تستعجل رحيلك.

- يا حبيبتي، أنا قاعد معاكي المره دي لأني جئت مع أصدقائي لأن عندنا حضرة صوفية.

- ما معنى حضرة صوفية؟

- آه طبعًا، مانتي خواجايه، بس خواجايه محمدية.

وضحكت لهذا الوصف الذي وصفها به وظلت تضحك!.. وللمرة الثانية سألته:

- ما معنى صوفية؟

- الصوفية دي مشتقة من الصفاء، أي صفاء الروح وسموها، وهم قوم الحب مبدؤهم، فهم متآخون في الله، ومتحابون في رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- الله يا عمو، حاجات جميلة، لو كلمتني كمان عنهم، احكي لي كل حاجة عنهم.

- أقولك، إيه رأيك الإمام ييجي يزورك مع بقية الأحباب؟

- ماشي...

قالتها وهي مترددة، لكنها امتثلت لأجل خاطر عمها الحبيب، وقالت في نفسها: يا فاتن دايما بيتك مفتوح لكل الناس، ما جتش على حبايب عمك.

وكتمت هذا الشعور واتصلت بصديقاتها:

- إيه رأيكم تيجو بكره، في ناس مهمة جايين يزوروني؟

وفي اليوم التالي دق جرس الباب في الخامسة تمامًا، واستقبلهم عمها بفرح شديد، وترحاب شديد.

كان الرجال ملتفين حول إمامهم بكل حب واحترام، وهو في وسطهم كالبدر في ليلة تمامه.

وتعجبت فاتن... من يكون هذا الرجل الذي لم تر مثله من قبل؟

إن له نورًا يضيء وجهه المضيء المبتسم، وله عينان تشعان حبًا وحنانًا.

كان السيد عز الدين يرتدي أفخم الثياب وأحلاها، وكان قمة في الأناقة وقمة في السماحة، وحين يقع نظرك عليه لا تستطيع أن تشيح بوجهك عنه.

وتذكرت فاتن أم كلثوم وهي تشدو وكأنها تغني له:

«وانت معايا يصعب عليا، رمشة عينيه ولا حتى ثانية... يصعب عليا ليغيب جمالك، ويغيب دلالك ولو شويه»!

وانتبهت على صوت عمها وهو يدعوهم للجلوس في الصالون، ولم تشعر بنفسها إلا وهي تجلس بجانبه، لا تتكلم ولا تنطق بحرف واحد.

وسألها في بساطة:

- ما هي الشهادة التي حصلتي عليها؟

- ليسانس الآداب قسم اللغة الفرنسية، ثم دراسات عليا في الأدب الفرنسي والترجمة.

- أو تعملين؟

- لا... لا أعمل.

ومرت ساعات ودقائق وثواني وهي تستمع لأحلى الكلام.. الكلام الصوفي، ولم تجد أية غضاضة في حديثهم، بل على العكس وجدت حلاوة لم تتذوقها من قبل، حلاوة تقشعر لها الأبدان، وتمتلئ منها العيون بالدموع، إنه الوجد!

وبكت فاتن كثيرًا، وشعرت بغربتها عن هذا العالم الذي تعيش فيه، واكتشفت أنها فعلًا صوفية، بل إنها عاشقة لهذا التصوف فهو يجري في دمها، لكنها لم تكن تعرف اسمه.

نعم، إنها ولدت اليوم، اليوم فقط، وتذكرت مقولة السيد المسيح: «لا يلج الملكوت إلا من ولد مرتين».

نعم إنها ولجت الملكوت وصعدت إلى السماء.

ثم أخذوا ينشدون مواجيد رائعة لم تسمعها من قبل.

كانوا ينشدون:

على قدري أصوغ لك المديحا

ومدحك صاغه ربي صريحا

ومن أنا يا إمام الرسل حتى

أوفي قدرك السامي شروحا

وانتهت هذه الليلة وبقي عمها إلى جانبها، ولم تنم في هذه الليلة. لقد أصبحت صوفية من رأسها إلى قدميها، وتوجهت إلى المكتبات لتنهل من هذا الفكر الصوفي، وتفوقت على الكثيرين، وكانت فرحة الإمام بها كبيرة، وكانوا يطلقون عليها «الخوجاية المحمدية»، أو «صوفية هانم».

نعم، كانت فاتن هانم في كل شـيء... في سلوكها... في تعليمها... في رقتها... في كل شيء، وكان الإمام يستقبلها بحفاوة ليس لها نظير.

وكانت الغيرة تملأ قلوب من حوله، لماذا هي ونحن أقدم منها؟.. وكان يرد عليهم: «ليس الطريق لمن سبق، إنما الطريق لمن صدق».

وكانت حين تقرأ عن الصوفية تقف مشدوهة، كانت متيمة بقول الإمام:

أهلا بأحبابي أهلا بزواري

والمغرمين بأحوالي وأسواري

في الله همتكم فيه زيارتكم

قد طاب ممشاكم يا أهل أنواري

وامتلأ قلبها بالتصوف والحب الإلهي، وحفظت الكثير من الحكم والمواجد.

مات الإمام وترك في قلبها غصة، وشعرت بالوحدة بعد أن كان يرعاها كابنته، فهو لم يرزق بأولاد، ولكنه رزق العلم والأنوار والأسرار، واختفى الأب الحنون الذي طالما أنار حياتها، ولكنه ترك لها الميراث الذي تعيش من خلاله، فورثت عنه الصوفية والحب، وهذا ميراث الغنى الكامل.

***

ولكني أحبك

التقت به بالصدفة في ندوة ثقافية كانت قد دعيت إليها بمحض الصدفة!

أما هو فقد جاء يكرم من وزارة الثقافة المصرية على كتابه الأخير.

إنه الكاتب العربي المبدع «سيف الدين».

كان هو جالسًا في وقار ونضوج يتصفح كتابًا في يده، وجاء المسؤول عن الندوة وقدّم الحاضرين في الندوة.. وقال له:

– هذه هي «مي» كاتبة، وهذا هو الأستاذ سيف الدين جاء ليكرم من وزارة الثقافة المصرية، وهو تونسي الجنسية، وقد كتب العديد من الروايات، وهو سارد مبدع ومشهور في بلده، بل في الوطن العربي كله، وقد أثرى المكتبة العربية بإنتاجه الغزير من الرواية الطويلة والقصة القصيرة.

وقدّم لها في تواضع وأدب جم كتابه الذي نال عليه التكريم، وقد أهدته بدورها كتابها.

وتساءلت مي: لماذا يجلس وحيدًا هادئًا؟.. وشعرت بالشفقة عليه، وجرت نحوه دون أن تشعر.

- أستاذ سيف، ماذا تشرب؟

واندهش الرجل:

- أتعنين ما تقولين؟

- نعم، نعم، هل تفضل شاي أم قهوة؟

وذهبت إلى الكافاتريا وأحضرتك اثنين قهوة، وجلسا معًا في صمت، فهما غريبان لا يعرفان سوى اسميهما.

وكان ينظر إليها من وقت لآخر، ويبتسم ابتسامته الجميلة، وفي هذه اللحظة دخل رجل إلى القاعة وأخذ سيف بين أحضانه وقال له:

- ياللا يا سيف، المدام جهزت السفرة والأولاد في انتظارك.

لكن سيف لم يكن متحمسًا للخروج مع صديقه، بل كان يريد أن يجلس مع هذه الساحرة التي سحرته من النظرة الأولى.

وقطع سيف هذا الصمت قائلًا:

- آه، نسيت أن أعرفك على مي، تكتب قصة قصيرة.

ويرد الصديق: أهلا بها.

أجابه الضيف وهو يتململ: سيف الأكل هايبرد، والجميع في انتظارك.

وخرجا معًا.

وعادت مي إلى بيتها بعد أن سلمت على الجميع، وعادت لممارسة حياتها الطبيعية، ونسيت هذا اليوم وما عادت تتذكره إلا لثوانٍ معدودة، واتصلت بها صديقتها قائلة:

- مي... من هذا الكاتب الذي كتب عنك هذا الكلام، وكيف فعل ذلك، وكيف يكتب اسمك بهذه الصراحة؟!

- دعيني أرى ما كتبه عني، وإذا بأسارير وجهها تنبسط وهي تضحك وتتعجب من هذا الكلام الجميل الذي أهداه لها:

- آه، كم أسعدتني يا سيف، فلم أسمع هذا الكلام الجميل من زمن طويل.

وفتحت مي قصته لتقرأها، واندهشت وتعجبت من هذا الإبداع، إن قلبها لا يكف عن الخفقان، يا له من مبدع، كيف استطاع أن يسيطر عليها من خلال السطور التي قرأتها؟..وأرادت مي أن تشكره، وكتبت له شكرًا جزيلًا:

- الأديب سيف، والسارد المبدع، شكرًا لك على ما كتبته عني وعن القاهرة الخالدة، والشكر موصول على هذا الكتاب الرائع الذي أقرأه الآن.

وجاء الرد رقيقًا كرقته.

- مي، هل أستطيع أن أكتب إليك بين الحين والآخر؟

وترددت ولكنها أجابته بتلقائيتها المعهودة:

- نعم على الرحب والسعة.

واستمرت الرسائل بينهما، وكل واحد منهما يحاول أن يعبر عما يشعر به. وتوطدت أواصر الصداقة بينهما، وحكى لها عن أسرته وأولاده وحكت له عن حياتها، وكيف استطاع أن يملأ حياتها بالبهجة والسعادة، حتى أنها أصبحت لا تفتح عيناها ولا تغلقهما إلى على صورته الحبيبة.

ووعدها أنه سيأتي لزيارتها لكنه لم يستطع. وبعد عدة أشهر قال لها:

- سوف أحضر لأراكِ يا حبيبتي.

وفرحت فرحة لا مثيل لها... آه، كم هي سعيدة تتعجل الأيام التي سيقضيها معها، إنها أيام في الجنة، فهي تتمنى أن تسعده كما أسعد قلبها، كم هي مشتاقة إليه، ماذا ستفعل؟

ستغير لون شعرها، سترتدي أحلى الحلى وأحلى الثياب وأجملها.. ولم تستطع أن تداري مشاعرها، وقالت له كل هذا الكلام، فقال:

- لا.. ولكن سني كبير يا مي.

- ولكني أحبك.

- أنا لا أملك نقودًا كثيرة.
- ولكني أحبك.
- لن أستطيع أن أترك عائلتي، كل الذي سأقضيه معك ثلاثة أيام.
- ولكني أحبك.
- لن تكسبي مني أي شيء.
- ولكني أحبك.
- أحبك وأشتاق إليك، هل تعلم ما هو الشوق؟
- إنه الدفئ في شتاء العمر، والفرح الذي يهزم الأحزان.

كانت تطير في فرحها إليه، وتهرع إليه في حزنها. قالت له:

- كنت أنتظرك.
- قال لها: من أنبأك عني؟
- قالت: مئات الأماني.

وحين كان يطريها ويصفها بوسعة القلب وبطيبتها كانت تتعجب وتسأله:

- حبيبي، كيف قرأتني كتابًا مفتوحًا مع أنك لم ترني إلا لدقائق، ومع أنك رايتني مرة واحدة، حين كنت أقرأ رسائلك كنت أرى نفسي من صنعك وأفكارك.

وكان أحيانًا يتوقف عن الكتابة وينساها أيامًا وليالٍ، لكنها لم تكف أبدًا عن الكتابة إليه.. المبدعون يعيشون في الخيال هكذا.. كانت تلتمس له الأعذار، فلا بد أنه مشغول بكتابة رواية جديدة، وأحيانًا كانت تغضب منه وتقسم ألا تكتب إليه بعد اليوم. وسرعان ما يعود إليها ويمطرها بأحلى الكلمات.

وآه ثم آه من جمال كلماته، إنها إكسير الحياة، بل بلسم لجراحها، وكم غنت: الحب كده...

ظل سيف يعدها باللقاء شهرًا وراء شهر، ولكنه لا يستطيع لأسباب لم يفصح عنها، وهي لا تزيد إلا حبًا له، بل تتغنى بأغنية أم كلثوم:

وعودك والخيال غالية عليا... وأغلى من حقيقة بين إيديا

وظلت تكتب له ولا يرد، وقد قالت له كثيرًا: يا حبيبي إن العاشق لا يعتذر.

ومضى عام وعاد لينساها، وكان غيابه طويلًا هذه المرة، وقررت أن تتركه، نعم ستتركه إنه حب من طرف واحد، وكتبت له رسالتها الأخيرة: «حين كنت صامتًا لا تكلمني ولا ترد على خطاباتي ولا ترسل لي رسالة واحدة تدل على حبك كتبت لك رسالة عطرتها بالعطور وملأتها بعبارات الحب والغزل وتواصلت

معك على الرغم من بعد المسافات، كنت أختصر الزمن، وأتخطى كل الحدود الممكنة.

لماذا غاب حديثك وابتعد صوتك فبهت الشعر وصمتت الأغاني وماتت الكلمات؟

وتذكرت قصيدة لنزار قباني وظلت ترددها:

لماذا تخليت عني وأنت تعلم أني أحبك أكثر من نفسي، لماذا؟

ولم يرد...

ربما تكون ضلت الطريق.

ولكنها فجأة وبدون مقدمات تذكرت أحلى كلمات الحب التي كان يرسلها لها، نعم إنه يحبها بل يكاد يعبدها، إنه صادق، نعم، بل إنه لم يكذب أبدًا.

إن رسائله من شدة صدقها تكاد تقسم لها على حبه لكنه يائس.

كيف له أن يترك كل شيء لأجلها... هل جننتِ يا مي؟.. أيترك بلده الجريح؟.. كيف يطاوعه ضميره، وهو العاشق المتيم الذي يعشق بلده ورفض أن يتركها وهو شاب قوي..

فكيف بعد مرور كل هذه السنين يترك عائلته وأهله وأصدقاءه الذين يجلونه ويعشقونه، إنه يمثل لهم مدرسة الإبداع.

وانهمرت دموعها.. لا لا، لن تدعه يرى دموعها.. يكفيه عذاب البعد.

الآن فقط فهمتي يا مي!

نعم ستنسحب من حياته، وسوف تلجأ إلى الله حتى تنساه، وكتبت له:

«حبيبي لن أنساك ما حييت، ولن أستبدليك بكنوز الأرض، وسأتمنى لك الخير كل الخير، ولكني أحبك».

***

قهوة الست عطيات

جاءت أحلام لتسكن مع زوجها في هذا العقار المتواضع الذي يتكون من أربعة طوابق، وكانت تسكن الدور الثاني، ولفت نظرها تلك الأصوات التي كانت تسمعها وهي تصعد الدرج...

إنه صوت يأتي من «البدروم»، وكانت دائماً ترى أنواراً تخرج من البدروم وتسمع همسات وضحكات تشيع جواً من البهجة والسعادة.

ترى من أين تأتي هذه الأجواء الجميلة؟

وذات يوم فُتح باب البدروم وهي واقفة أمامه تلتقط أنفاسها قبل أن تصعد الدرج، وظهرت سيدة في منتصف العمر، سمراء تميل إلى السمنة ويتخلل شعرها بعض الشعيرات البيضاء، إنها الست عطيات أو «عطا» كما كانوا يطلقون عليها. وابتسمت في ترحاب:

«إنتي ساكنة في الدورالثاني؟!!»

وردت هي في خجل:

«نعم هي أنا»، أهلاً وسهلاً يابنتي اتفضلي»،

وشكرتها قائلة:

- «في وقت تاني إن شاء الله».

وتكرّر هذا المشهد عدة مرات، وألِفَت هذا الوجه وأحست كأنها تعرفها منذ زمن بعيد، وأصبحتا وكأنهما صديقتان.

وزراتها ودخلت أحلام على استحياء، ولأول مرة إلى «بدروم الست عطا»، ووجدته نظيفاً مرتباً ذا رائحة عطرة، وقدمت لها فنجاناً من القهوة، هذا الفنجان ذكَّرها بقهوة أمها وجدَّتها.

وقالت لها الست عطا بعد أن شربت القهوة:

- «بالهنا والشفا إنتى نورتينا، هاتى فنجانك أقلبه وأقرأه لكِ»،

وتعجبت أحلام وهي السيدة المتعلمة المثقفة، ولكنها لم تشأ أن تحرجها أو تنتقص من قدرها، والتفتت إليها وكلها آذان صاغية تسمع ما تقوله الست عطا:

- «سيسافر زوجك إلى مكان بعيد وستصبحي غنية، ستغيرى عتبتك أي منزلك وسترزقي بطفلين جميلين، سيكونون لك قرة عين، إنتى ست طيبة جميلة، قلبك صافى، تحبين كل البشر وسيكافئك الله وسيكرمك ربك في أولادك».

واندهشت أحلام من هذا الكلام؛ ماذا تقول هذه السيدة، إن زوجها لم يفكر أبداً في السفر خارج البلاد، لا بد أنها تهذى بأشياء غريبة، لعلها صادقة يكفى حسن أستقبالها وحلاوة قهوتها، أما الغيب فلا يعلمه إلا الله.

واعتادت أحلام على شرب قهوة الست عطا، وبين الحين والآخر كانت تقرأ لها الطالع، ثم تضحكان وتتسامران حتى يأتى زوجها وتسمع خطواته وهو يصعد الدرج فتستأذن منصرفة لتلحق به، فترد عليها الست عطا:

- «ما هو بدرى ياحبيبتي.. خليكي مأنسانا ومنورانا».

فتعتذر في رقة وتنصرف بهدوء.

لقد أحبت الست عطا، أحبت كل شئ فيها، أحبت خفة ظلها ودماثة أخلاقها وكرمها رغم أنها لم تكن تملك شيئاً، وتذكرت العبارة التي كانت دائماً تسمعها: «سبق درهم ألف درهم». كانت كريمة، جوادة، لا أحد يدخل بيتها دون أن يُكرم ولو بفنجان قهوة.

ومرت الأيام وإذا بزوجها يزف إليها نبأ سفره إلى الخارج، وكانت قد رُزقت بطفل جميل.

وعرفت السر، سر الحب الذى يكنه لها كل سكان البيت بل كل سكان الحى، إنها ابتسامتها التي تبعث الأمل والرضا في النفوس الحائرة، إنه الدفء الذي ينبعث من صوتها فيبعث التفاؤل والمرح في النفوس الحزينة.

رحم الله الست عطا، فكم أسعدت قلوباً وداوت جراحاً بفنجان قهوتها.

***

قدرة الله

هي الأخت الصغيرة لسبعة إخوة وأخوات، وكانت أمها جارتنا امرأة غاية في الجمال والأناقة، وكانت «سونه» الصديقة الحميمة لأمى بل أعز صديقاتها، فلم تكونا تفترقان وكانتا تخرجان معًا للنزهة والتسوق، بل تمضيان أغلب أوقاتهما معاً دون أن تشعرا بالوقت من حلاوة حديثهما.

وكنا نحن الأولاد نحبهما حباً كبيراً، حتى أن الأم الواحدة كانت أمًا للجميع دون استثناء، وتعودنا كل يوم بعد الظهيرة أن نجتمع لنشرب القهوة والقرفة بالمكسرات، ونعرض مشاكلنا على بعضنا، ونتكلم في كل شئ حتى الموضة ووصفات الأكلات وما صدر من قصص جديدة. وكانت أمى تقول الشِعر وترتجله فيستمعون إليها بكل الحب والإعجاب.

أما الأبوان؛ فكان أبى تاجراً كبيراً، وكان الثانى على درجة البكوية، حيث إنه كان مديراً بالتعليم العالى آنذاك وكانا نعم الصديقين.

كان الأب رجلاً كريماً متديناً ذا هيبة وجلال، وكان يحب زوجته وأولاده حباً جماً ويغدق عليهم الحب والحنان.

وكانت يسرية أقلهن جمالاً، فقد كان أخواتها يتمتعن بجمال باهر وجاذبية ولكنها كانت فتاة سمراء تضع تكشيرة على وجهها ولا تتكلم كثيراً، وتزوجت أخواتها من خيرة الأزواج ومن أكبر العائلات وأغناها وظلت هي، لا أحد يتقدم إليها.

وكان أبوها قد استعان بمدرس إلزامى كى يساعدها في اللغة العربية، وكان يزورهم كل يوم فقد كانت في أمس الحاجة للمساعدة، فهي لم تكن تهوى العلم أيضاً بل كانت تذاكر دروسها على مضض.

دون مقدمات تقدم محمد أفندى ليطلب يدها وجاءت أمها لتتشاور مع أمي:

- «إيه رأيك يا منيرة هانم؟ ده لا حيلته أبيض ولا أسود»، انه لا يقارن بأزواج أخواتها.

- «هو وسيم يا سنية هانم ولا شكله إيه»!

- «لا والله ولكنه مقبول الشكل».

- «وأخلاقه يا سنية هانم»!

- «والله بيقولوا رجل محترم وطيب القلب، وإنتى عارفه يا ست منيرة أنه لا أحد يتقدم، ومن سنه زارنا ابن عمها ومرجعش».

- «ياسنية هانم إن شاء الله تتزوج، لسه نصيبها ما جاش، كل شئ قسمة ونصيب».

وقال أبوها:

- «خذوهم فقراء يغنيهم الله من فضله».

واعترضت أخواتها ولكنهن اقتنعن بعد أن طالت المناقشة. وتدخلنا جميعاً لحل المشكلة، ووافقت هي على مضض بعد رفض قاطع، إنه أقل بكثير من كل أفراد عائلتها، ولكنها حين نظرت في المرآة وتحدثت مع نفسها: «فعلاً، أنا لست جميلة مثلهن، سأتزوجه».

ولم تكن في نظرى أبداً قبيحة بل كنت دائماً أراها ساحرة متوسطة الجمال ولها عينان ملؤهما الذكاء والفطنة ولهما نظرة ساحرة.

وتزوجته، وكانت أحياناً تتعالى عليه وهو يتحمل وهى تتألم فلقد كان مغرماً بها، ولم يكونا يشركاننا خطواتنا الحلوة، ولا يتسامران معنا، بل انطويا على أنفسهما، وكانت حجرتهما دائماً مغلقة عليهما، فقد عاشا في نفس البيت، لأن الزوج لم يكن يملك شراء شقة أو حتى إيجار شقة مستقلة.

ولم يبذل محمد أفندى أي جهد في إصلاح سلوك زوجته يسرية المتعالى، بل على العكس كان مغرماً ومعجباً وفرحاً ومسروراً بها، فهو يعلم مدى رقي هذه العائلة التي تربت في أحضانها، وحاول هو أن يرقى إليها فكان يجتهد في وظيفته تارة، ويدرس أخرى، ولكن دون جدوى، فالمسافة بينهما كبيرة، وكان أبوها يحب زوجها ويتأثر كثيراً حين يرى ابنته متعالية، وكان يحاول كثيراً أن يقوَّم سلوكها،

كذلك أمها كانت تحب زوجها، وكان الأب والأم يغدقان على ابنتهما كل شئ جميل.

ومرت الأيام ورزقا بابنة جميلة تشبه جدتها، وكان محمد أفندى ينتمى لجماعة مناهضة للحكومة، فغادر وطنه إلى بلدة أخرى فتحت له الطريق، وأهدته جنسيتها، وسافر إلى تلك البلدة منفرداً، وترك زوجته وابنته في حضانة الأب والأم، واستأجر بيتاً هناك، وأصبح ذا وظيفة مرموقة، وطلبوا منه هناك اصطحاب أسرته، وظل يتدرج في وظيفته حتى وصل إلى مركز مرموق وأصبح أغنى رجل في عائلة زوجته، وكانوا إذا احتاجوا شيئاً لجأوا إليه، وظل هو على عطفه وحنانه عليها، فهو كان يريد أن يحقق أحلامها ويعوضها عن الأيام الخوالي التى لم تكن فيها راضية عليه، إنه مغرم بها ويحبها، إن الحب يصنع المعجزات.

وكانا قد أنجبا فتيات وزوجوهن من أزواج يملكون ثروات كبيرة، وأصبحت يسرية زوجة محمد أفندى تملك فيلا كبيرة في البلدة التى هاجرت إليها، وعمارة في أرقى أحياء القاهرة، وبيت في لندن وبيت في سويسرا، وقال لها محمد أفندى ذات يوم وهما يتجاذبان أطراف الحديث مع شاي الخامسة بعد الظهر:

- إنتي راضية عنى يا حبيبتى؟! زماني أهدانى بك وكنتي فاتحة خير عليّ، ونورتِ حياتى وجعلتينى مخلوقاً آخر، إنه وشّك الجميل،

إنك رمز الخير، بل الخير نفسه، كم أحبك، وأريد أن أعطيكِ حياتى وكل ثانية في وجودى.

ردت بتقل شديد كعادتها:

- شكراً يا محمد .. ربنا يخليك ليا وللأولاد.

ونظر إليها، فوجدها أصبحت جميلة، أجمل من أخواتها، بل لقد قاربت نجمات السينما، إنها تشترى أحدث أدوات التجميل، وترتدى أشيك الملابس، وتحافظ على رشاقتها، وتدفع الأموال الباهظة لتحافظ على صحتها وعلى قوامها، وتسافر هى وزوجها كثيراً إلى بلاد العالم، بعد أن زوجا البنات، وبعد أن علَّمت بناتها كيف يصبحن جميلات، وكيف يتعايشن مع العصر، ويستفدن من كل جديد، لقد علَّمت بناتها الإتيكيت، فأصبحن سيدات صالون من الطراز الأول.

وكنتُ أنا في عمر ابنتها الكبرى، فذهبت لزيارتهم عقب عودتهم من السفر، ويالللدهشة، فقد رأيت ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من النعيم ورغدة الحياة.

واستقبلونى بحرارة وكرم، ولم تنس يسرية علاقة أمى بأمها، ولم تنس الحب الذي كان يجمعنا، إنها أصيلة، ولدى رؤيتي تذكرت أمى وأمها وأبى وأباها، وكانوا قد انتقلوا جميعاً إلى الرفيق الأعلى بعد عشرة طيبة ملؤها الحب والحنان.

وسرحُت بخيالى، أتفكر في قدرة الله وفي قدره الجميل، إن القدر هو علم الله تعالى، وإن القدرة هي عظمته وقدرته على كل شئ، إن فضل الله واسع وعميم لا يستطيع مخلوق أن يحده أو يعده، حقاً.. إنها قدرة الله.

***

«عمري ما هانس يوم الاثنين»

غادرت أمينة بيتها في عربة خاصة متجهة إلى القاهرة كي تحضر ندوة ثقافية دعيت إليها... فهي كاتبة تكتب القصص من حين لآخر لأنها تهوى الأدب والشعر منذ نعومة أظفارها.

ولكنها بطبعها خجولة لا تحب الاختلاط ولا تهوى الشهرة. وتحت إلحاح الزملاء وافقت على الاشتراك في هذه الندوة، ووصلت إلى القاهرة وأمضت ليلتها في أحد الفنادق الراقية.

وكان لها زميل لطيف دمث الخلق يتودد إليها، ويحاول أن يساعدها ويأخذ بيدها كي تتعود على حضور تلك الندوات.

وردن هاتفها فاستيقظت:

- صباح الخير أمينة، حمدالله على السلامة.
- الله يسلمك، حسين كيف حالك؟
- بخير الحمد لله، متى وصلتي؟
- أمس، كانت رحلة ممتعة.
- هل تعرفين العنوان أم أمر عليك بسيارتي كي آخذك معي؟
- لا أريد أن أزعجك.

- لن تزعجيني، سأمر عليك في تمام الساعة الثانية عشرة.

نظرت أمينة في المرآة ورأت وجهها الجميل الذي كان يفيض نقاءً وجاذبية وتساءلت في حزن وضجر:

لماذا يا أمينة لم يحبك أحد إلى الآن؟.. إن جميع صديقاتك تزوجن بل رزقن بأطفال، وبقيتي أنتِ وحيدة.

ولكنها سرعان ما استعادت تفاؤلها والرضا الذي كانت معروفة به.

وظل الحوار الذي كان بينها وبين نفسها... ماذا جرى لك يا أمينة، هل جننت؟.. إن الله أعطاك ووهبك كل ما تتمناه امرأة مثلك، ولكن المشكلة الحقيقية لم تكن في غياب زوج أو حبيب، ولكنها كانت تكمن في موت الأب والأم، فبين ليلة وضحاها أصبحتِ أمينة وحيدة في هذه الحياة، تعيش وحيدة في شقتها الواسعة الجميلة. وعلى الرغم من حب الناس والأهل والجيران لم يستطع واحد منهم أن يعوضها عن حب والديها الكبير.

وأفاقت على صوت حسين يناديها:

- أنا منتظرك في اللوبي يا أمينة.
- دقيقة وهاكون عندك.
- تشرب إيه؟
- قهوة مضبوطة.

وشربا معًا القهوة، ثم ركبا السيارة ووصلا الندوة ودخلت أمينة على استحياء، فإذا الأصدقاء يستقبلونها بالتصفيق الحاد، فقد حصلت على جائزة على قصتها الأخيرة.

ورأت أمينة الفرحة على وجه حسين، لقد كان سعيدًا فخورًا بها.

- متى تعودين؟
- الآن، فالسائق ينتظرني.
- بسرعة كده؟
- الحمد لله كده تمام.

وأخذ يديها بين يديه ولكنها لم تترك له المجال... وبعد أن استقلت السيارة شعرت بحزن ووجع، إنها ستعود لوحدتها، ولكنها راحت في نوم عميق.

واستيقظت على صوت السائق:

- يا مدام، يا آنسة، وصلنا حمدالله على السلامة.
- الله يسلمك.

ودخلت شقتها ووضعت حقيبتها وتساءلت: لماذا عادت بهذه الشرعة؟

لقد حاول حسين كثيرًا أن تمضي معه بعض الوقت ولكنها رفضت، كانت تتذكر كل كلمة دارت بينهما.

وبينما هي تسترجع هذا اللقاء إذا بجرس تليفوني يرن بجانبها ولم تلتفت إليه.. لن ترد.. ولكن جرس التليفون ظل يرن ثم يرن، وأخذت السماعة لترد وهي عصبية جدًا:

- ألو مين؟

- أنا حسين.

- حسين؟

- أمينة.. تتجوزيني يا أمينة؟.. أنا مثلك ليس لي أحد.. ردي عليه ردي.. أمينة هل توافقين؟

- نعم.. نعم.. نعم.. موافقة.

ودارت بها الدنيا.. يا لها من سعادة، لقد استجاب الله لها وأرسل لها حبيبًا جميلًا، إنه الحب الذي طالما انتظرته، وظلت تردد وهي تبتسم:

عمري ما هنسى يوم الاثنين... يوم ما تقابلنا احنا الاثنين.

عمري ما هنسى يوم الاثنين... يوم الاثنين.

***

«يا أم الصابرين... مبروك جالك ولد»!

استيقظت سعاد على صوت صراخ في الحي الذي كانت تقطن به، وظنت أنها تحلم أو أنها رأت كابوسًا مخيفًا.. نعم لقد كان كابوسًا مرعبًا!

لقد أذيع في نشرة الأخبار أن الإخوان المسلمين كسبوا الانتخابات!

وتساءلت: كيف حدث هذا الدمار؟

يا للكارثة! ألهذا الحد جار عليكي الزمان، وتحالف ضدك يا مصرنا الغالية؟ يا أم الصابرين... أو تكون هذه هي النهاية بعد هذا الصبر الطويل؟.. إنها مأساة وكوميديا سوداء.

ولم تتمالك عفاف نفسها، بل أخذت تصرخ وتبكي: لا... لن تكون هذه نهايتك على يد هؤلاء الخونة.. يا رب أزح هذه الغمة، وكفانا ما جرى لنا منذ حرب أكتوبر المجيدة، فمنذ ذلك النصر والمصائب تنهال على رؤوسنا.

ورغم الدموع التي كانت تتساقط على خديها، أخذت تغني:

أحلى بلد بلدي... أجدع ولد ولدي... يارب أين هذا الولد؟

أما آن الأوان أن يظهر، ويملأ نفوس المصريين بالأمن والأمان؟

هل كبر على الكارهين لمصر أن تسترد مصر كرامتها، وأن ينتصر جيشها العظيم؟

لقد عانى المجتمع المصري وتأثر ثقافيًا واجتماعيًا وسياسيًا واقتصاديًا.

وظلت عفاف تسأل: ماذا سيفعل بنا محمد مرسي، وهو لا يرى إلا أهله وعشيرته؟

ماذا سيحدث بعد أن عانينا وذقنا الأمرين من تدمير البيئة وتردي الأحوال، وصارت مصر تعاني من الفقر والجهل والمرض؟

ومضى عام وكأنه قرن من الزمان، شاع فيه القتل والسحل والمؤامرات.

لم يرحمونا، حتى يوم الجمعة الذي كان يوم عرس للمصريين، اختاروه لقتل الشخصيات الهامة...

إلى أن جاء اليوم الذي أشرقت فيه شمس مصر الذهبية لامعة، مصر عادت شمسك الذهب.

وسمعت عفاف أمها تناديها:

- عفاف تعالي اسمعي ما جرى.
- وماذا جرى يا أمي؟

- خطاب هام لوزير الدفاع عبدالفتاح السيسي، الذي كنا نعتقد أنه منحاز للإخوان، ولكنه أفصح عن نواياه وأظهر انحيازه للشعب.

لقد خرج علينا وأعلنها واضحة صريحة: كفوا أيديكم عن شعب مصر.. هذا الشعب صبر كثيرًا ولم يجد من يحنو عليه.

نعم أنت القائد الهمام.. أنت الولد الشجاع الذي أنجبته مصر.. أنت عطية الله.. أنت الهبة التي أهداها الله لنا بعد كل هذا الصبر.. أنت الذي وضعت روحك على كفيك ولم ترهبهم.

ونزل الشعب كله، ولم يستطع أن يكتم فرحته، لقد ارتفع صوت الزغاريد في كل بيت، وفي كل حي، لقد سهر المصريون حتى الصباح وفي أيديهم أعلام مصر، كانوا يهتفون: تحيا مصر، وليسقط الخونة.

وظلت عفاف تغني هي وصديقاتها.. سي سي يا أبهة، إيه العظمة دي كلها.

ونظرت عفاف إلى السماء ودموع الفرح تملأ عينيها..

شكرًا يا أللـه.. لقد جبرت يا أللـه أم الصابرين

يا أم الصابرين: مبروك جالك ولد!

***

ليت شعري

أراهن أن جموع الشعب المصري تكتب الشعر.. لقد تعلموا الشعر، فهو كالنيل يجري في دماءهم.. فمنهم من تأثر بالسيرة الهلالية، ومنهم من تأثر بكبار الشعراء، كشوقي أمير الشعراء، ومحمود سامي البارودي.

ولكن عبدالرحمن الأبنودي كان أقربهم لتميزه بالشعر العامي، كذلك أحمد فؤاد نجم وسيد حجاب وغيرهم من شعراء العامية.

إنها عائلة طيبة تسكن بيتًا من بابه، وكان رب الأسرة من رجال التعليم، وكان قائدًا جيدًا.

والأم «الست بهية» ترعى أولادها وتعطف عليهم، حيث تربوا على حب العلم والأدب والثقافة، والأهم من ذلك أنها ربتهم على الحب والبذل والعطاء، فهي قلب مملوء بالحب الجميل.

وكانت تكتب وتقرأ لكنها لا تجيد الكتابة، لكنها كانت شاعرة تكتب أجمل الكلمات.

وحين كان يأتيها وحي الشعر تنادي على ابنتها صفية:

- هاتي ورقة وقلم وتعالي اكتبي.

يا زارع الود هو الود شجرة فل

ولا سواقي الوداد نشفت وماءها قل

وهكذا... كانت تكتب في كل المناسبات.

كتبت بهية لمصر والسادات فقالت:

ألفين صباح الخير يا سادات

يا ورد بيهل علينا

ياللي صباحك زي العيد

شفناه ونلنا أمانينا

القلب والعين لك داعيين

يابن البلد يا صلاح الدين

كانت الأم والاولاد ينظمون الشعر، بل والأهل والأقارب كانوا يكتبون الشعر أيضًا.

نظرت الأم في عيني ابنتها وقالت لها:

- حبيبتي أنت أيضًا تكتبين أحلى الكلمات.. هاتي ما عندك ماذا كتبتي، رأيتك بالأمس تحلقين في سماء الشعر وتكتبين.

- نعم يا أمي الحبيبة، كنت أكتب لكِ، فليس لي أحد يفوقك في حبك يا أميرتي.

- وماذا تكتبين يا أرق أبنائي؟.. قولي لي كي أفرح بحبك.

- كتبت لك يا أمي:

أمي الغالية إللي بحبها

وأتمنى أقضي عمري كله جنبها

ياللي عينيكي شطين أمان

ياللي معاكي بنسى الهوان

يا قلب أبيض مليان حنان

يا حضن دافي كله أمان

من غيرك إنتي إيه ياحياتي تكون

ياللي في حضنك كل شيء بيهون

- الله... جميلة كلها إحساس.

كانوا يتبادلون الآراء، ويستمعون إلى بعضهم البعض وكأنهم صالون أدبي دافئ صافي وجميل.

كانت بهية تعتز بأبنائها، كان لها اثنان من البنين وثلاثة من البنات، وكلهم ورثوها أخلاقيًا.

أما في الشعر فقد ورثها ثلاثة فقط من أبنائها..

منهم محمد الذي كتب أجمل الأشعار لكنه لم يهتم بجمعها. لقد كتب عن جمال عبدالناصر في سن مبكرة، فقال:

تسمح يا فني تنوب عني أقدر أهني
واللا أقول للطير غني خليك فرحان
أوصف جمال عبدالناصر ده شروع في جنان
ده عايز طه حسين وحسين مضروب في اتنين
أما إنت يا صاحبي تروح فين
وكتب لحبيبته ابنة عمه:
دي بنت عمي وبهواها
والدم ميبجاش ميه يا بوي

وكان له نصيب الأسد من الأشعار.

وكانت ابنتها الرابعة تكتب النثر وقليلًا من الشعر وتفوقت في دراستها، لقد كانت تغريد ذات شخصية قوية واستطاعت أن تنجح في حياتها ولكنها كانت مختلفة عن شقيقتها.

كتبت تغريد
مش ها نحني
ولا عمر عودي ها ينتني
ولا عمري مهما جريت وراك
راح انكسر وتذلني

كانت تغريد برغم قوة شخصيتها ذات طبيعة منفتحة، وتكتب ما يضحكك.

وجاءت البنت الأخيرة، وكانت آخر العنقود، وبينها وبين أختها البكرية اثنان وعشرون سنة، فأصبحت دلوعة العيلة، وكتبت هي الأخرى الشعر، فهي قطعة من الأم، ناهيك عن الشكل الخارجي ولكنها تشبهها حتى في أشعارها، وهكذا عاشت لشعرها.

كتبت صفية عن الأم والأخ والصديقة والحبيب... كتبت عن مصر أحلى الكلام، وحين سألوها قالت لهم:

- ليس لي غير وطني الذي لو شغلت بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلد نفسي.

وحين قامت ثورة 30 يونيو... وكان الرئيس السيسي بطلها، كتبت لمصر التي عادت للمصريين:

وحشتيني يا مصر

وحشتيني يا حرية

وحشتيني يا آدمية

وحشتيني يا محروسة

وحشتيني أبوس بوسة

وأغني لك يا بسبوسة

رجعتي يا مصر لولادك

كأن الغربة يا غالية

ما دقت يوم على بابك

سمعت بهية طرقًا على باب منزلها...

- أيوه... من بالباب؟

- أنا مندوب الأخبار.

وفتحت له الباب...

- أهلًا وسهلًا.

- مبروك لقد فازت الآنسة صفية في مسابقة الشعر العامي.

- صفية... صفية، لقد فزتي بالجائزة الكبرى.

- أمي، ماذا تقولين؟.. أنا لم أتقدم لأية جهة أو أية مسابقة.

- أعرف يا حبيبتي... لكن محمد أخوكِ قام بهذا العمل. صفية، نحن على يقين من تفوقكِ في الشعر.. لقد ورثتيني وورثتي الشعر من العائلة، بل تفوقتي علينا جميعًا. ألف مبروك يا حبيبتي.

- ألا ليت شعري.

هكذا ظلت العائلة صاحبة أجمل كلمات الشعر تتمتع بما يلقونه من جميل الأشعار، يشاركهم في هذا المجال الجيران والأهل والأصدقاء.

***

صباحية حد

ماشي ولا بيا ولا عليا صباحية حد

لفت بعيونها وسألتني عن حي الورد

من كتر السحر اللي في صوتها

طول عمري عايش في الحته

ما عرفت الرد

نعم هي فتاة في عمر الورد ينسدل على جبينها شعر ذهبي فوق عينين في زرقة السماء، وشفتان تشبهان ثمرة الفراولة الحمراء تضجان بحرارة الشباب.

كانت تستمع إلى أغنية «صباحية حد»، كم هي جميلة تلك الغنوة التي أثارت فيها مشاعر شتى.

وفجأة تذكرت حبيبها، نعم إنه لا يعمل يوم الأحد، يا ربي، أين أجده الآن؟

ربما يكون في بيته وحيدًا، فليس له أحد في هذا البلد.

لقد جاء من بلدته البعيدة، رآها في بيت أحد الأصدقاء وأحبها، بل جن بها، وهو الفنان الصوفي الحساس .

كانت أول حب في حياته وكتبت له الأشعار الجميلة ووصفها بأجمل العبارات... وهي بدورها أحبت أن تكون محبوبته الأولى، والتي يكتب فيها الشعر والنثر.

إنها حقًا محظوظة بهذا الحبيب، تكاد تحسد نفسها على حبه.

وتذكرت يوم الأحد، حيث كان حبيبها ينتظرها هناك.

- لا بد أن أسرع خطاي لعلي أجد أحمد ينتظرني.

وأفاقت على صوته الجميل الذي كانت تعشقه...

- نادية... نادية حبيبتي أخيرًا جئتي... كدت أفقد الأمل، سينتهي يوم الأحد دون أن أراكي، وأنتظر أسبوعًا كاملًا حتى أملي عيني بهذا الجمال.

- حبيبي، لا تخجلني بكلماتك التي لا تقاوم.

- حبيبتي، هلمي إلى أحضاني الدافئة... قبليني.

- لا... لا يا أحمد لا تقبلني

وظللت جبينها سحابة غضب رقيقة.

- آسف حبيبتي لم أتعمد إثارة غضبك.

- لا... لا تأسف يا حبيبي لكن عدني ألا تطلب تقبيلي إلا إذا كان بالحلال.

ودارت به الدنيا... ماذا تريد نادية؟.. أتريد أن تتزوجني. لا لن أستطيع. لا بد أن أنهي هذه العلاقة، لم يكن في حسباني موضوع الزواج.

- حبيبي أحمد ماذا جرى؟.. لماذا لا تتكلم؟.. هل كنت قاسية معك؟.. ولكني لم أقصد يا حياتي.

- لا شيء نادية ولكني مرهق. لقد صدمتيني بموضوع الزواج. أنا لا أفكر في الزواج. لقد اتخذت عهدًا بيني وبين نفسي ألا أتزوج، إمكانياتي لا تسمح بذلك.

- أحمد اسمعني جيدًا، أنا لا أريد منك شيئًا، كل الذي أريده ألا تلمسني إلا بالحلال، فلنتزوج حتى يكون ما بيننا حلال، أنا لا أريد أن أتزوجك من أجل المال أو من أجل الناس، ولكن أريدك فقط زوجًا أمام الله، هل هذا كثير علي يا أحمد؟

ولم يرد... وجرت إلى المطبخ لتعد له قهوته التي يفضلها من يديها... ونادت عليه:

- أحمد.. القهوة في انتظارك.

- أية قهوة يا نادية... لا حاجة لي بالقهوة الآن.

- ألن تشرب قهوتي؟

- لا لن أشربها، لن تنفع القهوة بعد اليوم.

وراحت تغني والدموع في عينيها، والقلب مجروح يبكي من شدة الألم، لقد كان قاسيًا وجرحها.

- ما هذه الأغنية التي تترنمين بها؟.. أرجوكِ كفي عن الغناء.

ولكنها استمرت في الغناء وغضب غضبًا شديدًا.

- ألم أقل لكِ كفي عن الغناء؟...

قالها بعصبية شديدة، وبكت بكل دموعها.. حتى نسي غضبه وهدأت أعصابه وأخذها بين ذراعيه يعتذر ويمسح دموعها بشفتيه وأدارت له رأسها في حركة عصبية وكفت عن البكاء.

لقد كان يسخر منها ومن قهوتها ومن تمسكها بمبادئها، أو هكذا ظنت فهجرته.

لقد ذهبت من حياته إلى الأبد رغم الحب الذي كان يملأ حياتها ويغذي شرايينها، برغم الخلاف، برغم الألم، برغم الإناء الذي قلت إنه انكسر، برغم الجراح، برغم العناء، يظل حبي لك مزروعًا في قلبي كوردة يوم الأحد.

وجرت إلى بيتها... لا بد أن تنسى هذا القاسي الذي سخر منها ومن شدة حبها له، أما هو فقد كان في انتظار قصة جديدة.

***

«قعدتي بين أعتابي ولا قعدتي بين أحبابي»

كانت تربيتها في أسرتها العريقة التي كانت معروفة في بلدها، وهي مركز من مراكز الشرقية.

كانت منيرة السيدة الجميلة الأنيقة قد تزوجت من ابن عمها رجل ميسور الحال، ورزقت منه بخمسة أطفال، وكانت سعيدة راضية بعطية ربها، وعاشت في رغد العيش، وصار بيتها منارة للأهل والأحباب، وكان الجميع يجتمعون في هذا البيت المنير.

ومن يذهب لزيارة «منيرة هانم» يجد كل أنواع الترحاب ويتذوق من كل أنواع الطعام والحلوى، فهي من بيت كرم وذوق رفيع.

وكبر الأولاد وتخرجوا في أرقى الجامعات، ورزقت بأجمل الأحفاد والذين كانوا يشبهونها ولا يختلفون عنها كثيرًا في جمالها ورقتها.

وبقيت منيرة هانم وحيدة في بيتها الكبير، فقد مات زوجها الرجل الطيب الذي احتضنها طيلة حياتها، وحزنت منيرة هانم عليه حزنًا شديدًا، لكنها كتمت حزنها وابتلعت دموعها حتى لا تؤثر على أولادها، ولم تلتف لشيء إلا لسعادتهم.

وكانت منيرة هانم صاحبة حكمة وتحفظ الكثير من الأمثلة الشعبية، حتى أصبحت لا تتكلم إلا بها، فإذا جاءت إحداهن تشكو زوجها، ترد عليها قائلة:

- يا بنتي «من حبنا حبيناه وصار متاعنا متاعه، ومن كرهنا كرهناه ويحرم علينا اجتماعه».

وإذا اشتكت لها جارة من جيرانها كانت تقول لها:

- «لولاكي يا جارتي لانفقعت مرارتي».

وإذا جاءتها امرأة تشكو زوجها الذي هجرها وتزوج بأخرى تقول لها:

- «جوه وبره فرشت لك، وإنت مايل وإيه يعدلك».

وكبرت منيرة هانم ولم تعد تستطيع الحركة، بل صارت تمشي بصعوبة، وكانت قد أعطت مالها لأولادها ورضيت بالقليل، وطلبت منها ابنتها أن تعيش معها لكنها رفضت، وذهبت إلى ابنها فتضررت زوجة الابن. وحين ذهبت إلى بناتها كان الأزواج لا يرحبون بها كما يجب وهي حساسة. لقد نسوا أفعالها فقررت العودة إلى بيتها.

نعم تعيش وحيدة على أن يأتوا إليها كلما سمحت الظروف، نعم إنها سعيدة بهذا القرار.

لقد تذكرت مثلًا كانت ترده جدتها وهو: «قعدتي بين أعتابي، ولا قعدتي بين أحبابي»!

***

الجنة الحلوة

كانت ليلى طفلة جميلة سمراء ذات شعر حريري أسود، وعينين واسعتين تطل منهما البراءة والسزاجة، خجولة وحساسة، لكنها كانت ذكية جدًا.

كان أبوها الحاج محمد رجل البر والتقوى، تاجر من كبار التجار، وكانت ليلى أصغر أبنائه، وكان يطلق عليها «آخر العنقود سكر معقود»، وكان يدللها ويحنو عليها حنوة أبوة عطفًا ولينًا.

كان الحاج محمد يقدس العلم ويجله أيما إجلال، فاهتم بتعليم أبنائه، فمنهم من التحق بكلية الطب، ومنهم من تخرج في كلية الصيدلة.

كان الحاج محمد يدعو أصدقائه عشية كلي أحد لحضور حضرة العلم، وكان يدعو لحضورها كبار التجار، وكذلك كان يدعو أطباء ومستشارين وأساتذة جامعات، يقرأؤون القرآن ويتدارسون معانيه، ويصلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ينبغي الصلاة عليه، ثم يتكلمون عن الحب في الله، والحب بين البشر والتسامح وجبر الخواطر.

وعشقت ليلى هذه الأمسيات، خصوصًا تلك الألحان الجميلة... وكان أبوها يطلق على هذه الأمسيات «الجنة الحلوة».

نعم، هي الجنة الحلوة الخالية من الشر والحقد والبخل والحرص والأذى.

وهكذا تربت ليلى في الجنة الحلوة محاطة بالحب والحنان، وأصبحت جزءً لا يتجزأ من تلك المعاني الفاضلة.

وكبرت ليلى وسافرت إلى فرنسا لتكمل تعليمها، ولم تستطع أن تفهم هؤلاء البشر، وهي أيضا لم يفهمها واحد منهم... فمنهم من ظن أنها تكذب، فلا أحد يتصور رقة قلبها وحبها للخير حتى مع أعدائها.

من أين أتيتِ يا ليلى... وإلى أين تذهبين؟.. هل ستعودين إلى الجنة الحلوة؟

نعم، نعم، ليس لي غيرها، عودي إليها وسوف تجدين الحب والسكينة، وستذوقين حلاوة لن تجديها إلى في الجنة الحلوة.

***

المحتويات

الإهداء 5

الخواجة ياني 7

مادلين 13

فلورا فوستاس 18

قصة ماري 21

هانيا 28

صوفيه هانم 35

ولكني أحبك 41

قهوة الست عطيات 49

قدرة اللّه 52

«عمري ما هانسى يوم الاثنين» 58

«يا أم الصابرين... مبروك جالك ولد»! 62

ليت شعري 65

صباحية حد 71
«قعدتي بين أعتابي ولا قعدتي بين أحبابي» 75
الجنة الحلوة 77